الحركة الثقافية خلال العهد الزياني – تلمسان في القرنين السادس والسابع للهجرة.

الطالبة: فضيلة بوعياد
بإشراف الأستاذ الدكتور: محمد زمري
جامعة تلمسان

ملخص:
هذه المقال الذي بين أيدينا يدخل ضمن الحركة الثقافية في الفترة الزيانية والتي عرفت بالتطور الثقافي والازدهار العلمي خلال القرنين السادس والسابع هجرية. وما شهدته من تنافس ثقافي بين بلدان المغرب العربي والشرق الأوسط والأندلس، وذاك كله بفضل جود ملوكها وكرمهم وسخائهم على طلبة العلم عامة وعلى العلماء خاصة. واستحضارهم الى بلاطهم الملكي الزياني من أجل الاستفادة من علمهم ومن نشر خيراتهم.

the article on our hand introduces the cultural movement what it had witnessed thought and science flourished during the sixth and seventh hijri centuries ; what it had certified as cultural competition from hwo eastern and western conntries inaddition to andatousia all that is due to its generious kings on the scientits and student then brought then to their zianid yard to benefit from their knowledge.

تتمركز مدينة تلمسان في أقصى غرب الجزائر بين الحدود المغربية في الغرب و ولاية سيدي بلعباس في الشرق والنعامة في الجنوب ، جالسة بين جنبات وادي تافنة ووادي ايسر لتشرف على سهل واسع الارتفاع ب 700 متر والذي يبدأ من جبال تلمسان 1200 م – 1800 م في الجنوب ، حتى التقاء الوادين ب 150 م عرضا على بعد 30 كم من البحر الأبيض المتوسط في الشمال (01) .
تقع تلمسان عاصمة الدولة الزيانية في سفح جبل بن ورنيد حيث أنها ترتفع على مستوى سطح البحر بنحو 830 مئوية ، تتمركز في أقصى الشمال الغربي ، حيث تعد حلقة وصل بين الشمال والجنوب وبين شرقها وغربها فهي مركز عبوري مهم آنذاك سواء في حربها أو سلمها وكذلك تجارتها وعلومها (02) . فقد بزغ نجم هذه الدولة العبد الواديةبعدما انكمش ضوء جارتها الشرقية بنو حماد ، وقد تعاقبت على هذه الدولة الزيانية أي المدينةاربع مماليك مسلمة كانت أولاها الأدارسة الذين كانت عاصمتهم فاس بالمغرب الأقصى من سنة 174 -790 م حاصرها ادريس الأول – أقادير – فاتحا ومسقرا بها ثم جاءت دولة المرابطين الذين حكموها بين سنتي 461 ه – 1069 م و 507 ه -1114 م فقد كان حاكمها يوسف بن تاشفين الذي كسر عقدة الأدارسة وأحاط بهم ، الى أن تأتي دولة الموحدين وترأسها عبد المؤمن بن علي فقام بالاستيلاء على هذه المدينة سنة 507ه-1114 م فكانت مدة حكمه 625 ه – 1227 م فأخيرا جاء دور الدولة العبدالودية– دولة الزيانية – التي ترأسها يغمراسن بن زياد سنة 633 ه – 1235 م كما أن بنوحفص – تونس – استعمروا تلمسان فترة وجيزة لكنهم خرجوا منها 639 ه – 1241 م (03) . فقد اهتم الزيانيون منذ أن استقر سلطانهم في المغرب الأوسط على نشر العلم والثقافة وكان عهدهم الذي دام أكثر من ثلاثة قرون فازدهرت الحياة الثقافية في زمانهم ، وشهد للكثير من علماء تلمسان بالتقدم وكان هناك ظاهرة التنافس الثقافي بين بلدان المغرب الأقصى يقصدون تلمسان للتزود من العلوم والمعارف والتلقي عن علمائها والمشاركة في الحياة الفكرية ويؤكد ذلك الامام المقري الجد : فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة فاستوعبت أهل البلد لقاء وأخذت عن بعضهم عرضاً ولقاءا سواء المقيم القاطن أو الوارد الظاعن (05) . فأقبل أهل العلم من المغرب الأقصى على الاكتراع من ينابيع الثقافة بتلمسان والاستفادة من علمائها حتى صار لهم حصول الملكات في المباشرة والتلقين أشد احتكاما وأقوى رسوخا ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها حسب تعبيير ابن خلدون (06) . فان رجال دولة بني زيان

تمكنوا من تدعيم الاستقلال المطلق فتألقت أنوار الحضارة الزيانية الإسلامية تألقا غريبا ، وأصبحت حاضرة من أهم وأعظم عواصم العلم والسيادة بالعالم الإسلامي قاطبة فنبع فيها عدد لا يشق له غبار من العلماء والأدباء والشعراء والباحيثين وقد قصدها طلاب العلم وطلاب الشهرة والمكانة من كل جهات العالم العربي ، فتوطدت العلاقة بين كل البلدان المجاورة ، فأخذوا ينهلون من مائها العذب الصافي ويحصلون العلم الدقيق والمتناثر أوراقه في كل ساحة الفكر والأخذ من مكتسباتها العلمية والتذوق من مناهلها العقلية والنقلية (07) .

يعد يغمراسن نابغة وقته ، فقد كان يجاور أصحاب العلم والعلماء ويقربهم الى منزلته ، ويغمرهم بالعطايا ، فقد كان يجالس العلماء ويبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم الى بلده و يقابلهم بما هم أهله ، وقد التفت حوله الأدباء والشعراء والكتاب من الأندلس والمغرب فبسط عليهم رعايته ، وولى الكثيرمنهم مناصب الثقة والمسؤولية في بلاطه ، وعلى نهجه سار أحفاده من بعده (08) . فان العهد العبدالوادي الزياني يعتبر رغم الوقائع الحربية المتعددة والفتن الداخلية المتوالية للعصر الذهبي للمغرب الأوسط ، ففيه بلغت البلاد ذروة عزها وأوج مجدها ومنتهى رقيها وازدهارها في الحركة الثقافية وذلك يرجع للأسباب الآتية :

* تشجيع ملوك بني عبد الواد للعلم : فقد كان ملوك بني عبد الواد عموما وأبو حمو موسى الأول وأبو تاشفين عبد الرحمن الأول وأبو حمو موسى الثاني وأبو زيان محمد الثاني وأبو العباس أحمد العاقل خصوصا يشجعون العلماء والأدباء والفنانين وغيرهم ويقربونهم اليهم ويكرمونهم غاية الاكرام ويرحبون بالوافدين عليهم منهم ويجزلون لهم العطاء .

*المنافسة بين ملوك المغرب : كانت المنافسة شديدة بين ملوك البلاط الزياني والبلاط الزياني والبلاط الحفصي والمريني من جهة أخرى في تقريب العلماء والأدباء والفنانين من مجالسهم ، فهذه المنافسة جعلت ملوك تلمسان وتونس وبجاية وفاس وكذلك بنو الأحمر ملوك غرناطة من بلاد الأندلس يرحبون برجال العلم والأدب والفن في عواصمهم وينزلونهم المنزل اللائق بأمثالهم ويبذلون لهم الهبات والعطايا ويرفعون من شأنهم .

*بالاضافة الى انشاء المدارس ووقف الأوقاف عليها : فقد أنشأ بنو زيان في عهدهم عدة مدارس بتلمسان وكذلك بنو مرين في مدة استيلائهم عليها ووقفوا الأوقاف عليها كي تؤدي مهمتها كاملة من بينها هاته المدارس نذكر : المدرسة القديمة أو مدرسة ابني الامام (أبو حمو موسى الأول) ، والمدرسة التاشفينية (أبو تاشفين عبد الرحمن الأول و مدرسة سيدي أبي مدين ، مدرسة وزاوية سيدي الحلوي ، وكذلك المدرسة (أبو حمو موسى الثاني) ومدرسة سيدي الحسن بن مخلوف الراشدي المشهور بأبركان، وانشاء المكتبات العامة (09) . كما امتاز عصربني زيان انتشار حركة المتصوفة بين جميع طبقات الشعب ، بما فيه طبقة الفقهاء ، فلقد عرف ملوك المغرب الأوسط من بني عبد الواد وذلك ابتداءاً من مؤسس الدولة بنصرتهم للعلم وتأييدهم للعلماء وعرفوا أيضا بمشاركتهم للعامة في الاختفاء وبهم وبتبجيلهم ، فان كتب التراجم وكتب التاريخ ومنها على الخصوص كتاب " نظم الدر والعقيان " التي شيدها أولئك الملوك ، وبأخبار حفاوتهم بأهل العلم من سكان القطر والقادمين من الخارج أيضا وحضورهم لدروس الأساتذة منهم ، والخروج في جنازة من يموت منهم ، كما نقلت لنا ذلك لنا ذلك الكتب أخبار المهرجانات الشعرية التي كان ينظمها أكثر الملوك كل سنة عند حلول ليلة المولد النبوي ، وقد شارك بعضهم في تلك الحركة الفكرية والأدبية ، ونذكر منهم : أبا حمو الثاني الذي قال الشعر وخلف لنا كتابا مشهوراً في السياسة ، كما نذكر ابنه ابازيان ، وقد كانت دولته في فجر القرن التاسع (10). ومن مظاهر الحياة الفكرية في العهد الوادي ازدهار النثر الذي امتازت به رسائل ذلك العهد كما ازدهر الشعر ، وخصوصا الشعر المرتجل في المناسابات وساهم في تلك النهضة بقسط وافر مهاجروا الأندلس والمثقفون بحيث صار بلاط بني عبد الواد عامراً بالشعراء والأدباء ، وكانت الندوات الأدبية والعلمية تنعقد في كثير من الأحيان في قصر المشور في اطار فني يعتبر من بعض جوانبه نسخة من الحضارة الإسلامية بالأندلس ، وفي ميدان الفن فقد انتعشت الموسيقى الأندلسية بالنوبة الغرناطية منذ قدوم مهاجري الأندلس وكان العهد العبدالوادي عهد انتاج ثقافي وفير من خلال تلك العلاقات التي كانت تستهدف الحركة الثقافية من مزايا وسمات اكتسبتها الزيانية من خلال وفود العلماء عليها من شتى أقطار العالم الإسلامي وأيضاً من خلال الرحلات العلمية التي تجوب وتستهدف كل كل البلاد المجاورة (11) .

لقد اهتم مؤسس دولة بني عبد الواد الزيانية بالعلم و العلماء,فقد أحاط نفسه بالأدباء و علماء الدين من كتاب ووزراء و قضاة و كانوا كلهم من البربر و الأندلس , في حين أن وزيره الأول أبا بكر محمد الغافقي (المتوفي سنة 636 ه-1238ه)

جاء من الأندلس حيث شغل نفس المنصب لدى ملك غرناطة من بني نصر و كان عالما ضليعا في الادب و الشعر و الفقه.(12) و مما يلاحظ أن الطلية كانوا يتوجهون في طلب العلم بواسطة الرحلات, فاحتك علما ,المغرب الأوسط بعلماء المغرب و المشرق العربيين فتأثرت بذلك الحياة الفكرية الثقافية بدولة بني عبد الواد , فصارت تلمسان مركزا علميا يضاهي مراكز الثقافة في كل من تونس و المغرب , و مما يشار إليه أنه كان يوجد بالمسجد الأعظم(13) مكتبتان عامتان في العهد العبد الوادي , و كانت كلتا هما حافلتين بالكتب النفيسة التي كانت يستفاد منها الطلبة , فالمكتبة الأولى أقامها أبو حمو موسى الثاني , أما المكتبة الثانية أنشأها السلطان أبو زيان محمد الثاني بن أبي حمو موسى الثاني حوالي 796 م و كانت هذه المكتبة بالقسم الأمامي من المسجد الأعظم . تميز شعراء العصر الزياني بمنحى خلقي في شعرهم , كما أحيا الزيانيون النظرية الخلقية الإسلامية العربية و خصيصتها هي النظم الخلقي في جل أغراض الشعر شريطة أن يكون رسالة دينية , و مستودعا من الحكم و المواعظ و الأخلاق فام يتجرد الشعراء في العصر الزياني من هذه النظرية , و لعل أبرز النوازع الخلقية التي أثارها الشاعر في هذا العصر هي الخير و الفضل و العلم و الاقتصاد و الايمان و الصدق و الصبر و التوكل و الإخلاص فكانت جملتها شراكة تربط نظم معظم شعرا, العهد و تدل بعض المصادر الأصلية على نفية من شعراء النزعة الأخلاقية في بدايات العصر الزياني حيث دونت لنا شعرا و التفلسف في نزعة خلقية يحث فيها الشاعر على معاني الكياسة و الحذف و الفطنة في ادراك الوجود, بل في ادراك الحق عن الصدق لا عن باطل و اجحاد و بلادة , فقد قال عن عاطفة تتم عن خلة الصدق و الايمان معا :

إذا نطق الوجود أصاخ قوم بآذان إلى نطق الوجود
و ذاك النطق ليس به انعجام و لكن دق عن فهم البلد
فكن فطنا تنادى من قريب و لأنك من ينادى من بعيد

بالإضافة الى كل هذا يوجد عالم عالم فقيه أديب عاش في القرن السابع الهجري , و صفه المازوني في نوازله بأنه الشيخ الفقيه الامام الأديب الكاتب أبي عبد الله أخذ عن الامام الشريف التلمساني و هو محمد بن يوسف القيسي الثغري اتسم شعره بالمدح و الكرم و العدل .
قال الثغري في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم :

لك يا رسول الله كل دلالة لم تبق من شك لمن يتوهم
تلك المراتب لم يكن لينا لها الا الهاشمي الأكرم
يا خاتم الرسل الكرام و خير منه يبدأ به الذكر الجميل و يختم
لولا عطاياه الجزيلة لم تكن تعلى الأكارم و المكارم تعلم (14)

كان التعليم في تلمسان يمر بمراحل مختلفة داخل مدن و قرى الدولة الزيانية , بوجود كم هائل من العلماء الذين أفنوا حياتهم في ذلك و من بين هذه المراحل نعدد :
المرحلة الأولى : يتعلم فيها الطالب القراءة و الكتابة و الحفظ أجزاء من القرآن و تجويده , و كانت تتم هذه المراحل داخل الكتاتيب و بعض زوايا المساجد غير مشهورة , و يكون عدد الطلبة فيها كثيرا , و عمر الطالب عند دخوله للكتاب يتراوح بين الخمس و الست سنوات , حيث يجتمع الطلبة بالكتاتيب و يتلون آيات القرآن بصوت واحد للتعلم كما يلم الطلبة ببعض علم الفقه و اللغة و النحو.
أما المرحلة الثانية : فتعد مرحلة متقدمة عن الأولى , يدرس فيها الطلبة علوم النحو و اللغة و الأدب و الفقه و تتم داخل المسجد , أو المدارس أو الزوايا , و عدد الطلبة فيها أقل من المرحلة الأولى و في المرحلة الأخيرة -الثالثة- يركز الطالب فيها على فرع معين من العلوم أو الآداب و تكون الدراسة في المدارس أو المساجد المشهورة مثل الجامع الأعظم , و يقل عدد الطلبة فيها من المرحلة السابقة , و عمر

الطالب عند دخول المدرسة يكون بحدود العشرين عاما و تستمر ما يقارب عشرة أعوام , و بعد الأنتهاء من المرحلة الثالثة يطوق الطالب البلاد للقاء العلماء المشهورين , و كثير منهم يرتحل إلى أقطار المغرب و الأندلس و الشرق ناهيك عن شيئ أن التعليم بتلمسان في عهد الحقبة الزيانية يوجد نوعان : فالنوع الأول يكون حكومي , و يطلق عليه أحيانا التعليم الرسمي و هو تعليم تقوم به الدولة اتجاه الأفراد , و تأخذ الدولة على عاتقها بناء المدارس , و تعيين المدرسين و تحديد الجرايات للمدرسين و الطلاب , و في هذا النوع من التعليم تقوم الدولة بتدريس ما تريده و ترغب به , و تهتم الدولة بهذا النوع حتى يتم تخريج موظفين لها.

أما النوع الثاني : فيطلق عليه التعليم الحر , و يتم دون تدخل الدولة أو تكون سيطرتها عليها قليلة , و يتم داخل الزوايا و قرب قبور الأولياء و بعض المساجد , و قد نقل أحد المصادر عن العلامة عبد الله بن محمد التلمساني أنه انتقل للتدريس في الجامع الأعظم في تلمسان بمعنى ذلك انه ابتعد عن التدريس بمدارس الدولة ليدرس داخل المساجد بعيدا عن منهاج الدولة , و يكون الطلاب بهذا النوع من التعليم لديهم علم و معرفة بالمذاهب أشمل من النوع الأول , و مما يلاحظ على الحركة الثقافية في هذا العهد أن سلاطينها شجعوا هذه الحياة العلمية و ذلك من خلال مجموعة من الطرق المتعددة منها :

بناء المدارس الخاصة للتدريس , وبناء منازل للمدرسين و الطلاب قرب المدارس و تعيين الجرايات للمدرسين و الطلاب , و حتى يشجع السلاطين الزيانيون على الحركة الثقافية داخل تلمسان قاموا بتحديد جرايات لكل مدرس و طالب , و تم تخصيص الأوقات لذلك , مثل مثل اقطاع سلطات يغمراسن للعالم التنسي سنة 666 هجرية الموافق ل 1267 ميلادية اقطاعات بنواحي تلمسان حتى يصرف على نفسه , و ترتيب السلطات أبو حمو موسى الثاني الجرايات و الأوقات على المدرسة التي أقامها في تلمسان لصالح الطلاب و المدرسين , و كذلك بحث السلاطين الزيانيون عن المدرسين الأكفاء و محاولة استقطابهم للتدريس داخل تلمسان , فقد اهتم السلطان يغمراسن بذالك عندما طلب من العالم أبي إسحاق بن يخلف التنسي سنة 680 هجرية الموافق 1281 ميلادية

القدوم و التدريس بالجامع الأعظم بالمدينة قائلا له : "ما جئتك إلا راغبا منك أن تنقل إلى بلدنا تنشر فيها العلم و علينا ما تحتاج" , و كان يذهب بنفسه لحضور دروسه في الجامع الأعظم , مما يوضح اهتمامه بالعلم و العلماء و قيام السلطان أبي حمو موسى الأول بتعيين و لدي الامام للتدريس بمدرسة أقامها لهم داخل تلمسان , و كذلك قيام السلطان أبا حمو موسى الثاني بمحاولة استقدام العلامة ابن خلدون عبد الرحمن , فقد كتب له بخط يده "الحمد لله على ما انعم , و الشكر على ما وهب , ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون حفظه الله على أنك تصل إلى مقامنا الكريم لما اختصصتم به من الرتبة المنيعة و المنزلة الرفيعة و هو حكم خلافتنا و الانتظام في سلك أوليائنا اعلمناكم بذلك".

فقد كرر السلطان أبو حمو موسى الثاني مرة ثانية سنة 769 هجرية يستحثه القدوم لتلمسان و التدريس فيها أو استلام منصب , و كان يهدف السلطان من تقريب ابن خلدون اليه استئلاف القبائل العربية و خاصة رياح لقرب ابن خلدون من تلك القبائل , و كان ابن خلدون يستقبل تلك الرسائل و يرد عليها بلطف , وبعد ذلك أرسل شقيقه يحى لخدمة الدولة الزيانية و و كذلك قيام السلطان أبي حمو موسى الثاني بتعيين العالم أبو عبد الله الشريف الادريسي بالمدرسة اليعقوبية و هو في تلك الفترة من أعلم أهل عصره (15).

وكذالك من بين الطرق التي شجعت الحركة الثقافية بتلمسان في العهد الزياني و كانت في أوج ازدهارها و رقيها هي مشاركة السلاطين للعلماء بالاحتفالات في الأعياد و المناسبات و اجراء المسابقات الثقافية و خاصة الشعرية مع العلماء , فقد شارك السلاطين الزيانيون علما , تلمسان في مسابقات ثقافية مثل التي كانت تجري داخل القصر السلطاني –المشور- أيام الاحتفالات بالأعياد النبوية , حيث شارك السلطان الأدباء في مسابقات الشعر , و خاصة السلطان أبو حمو موسى الثاني و و مساهمته في تأليف الكتب مما اثرى الحركة الثقافية بالمدينة , كما اهتم السلطان أبو زيان بن أبي حمو بالمناظرات العلمية بين العلماء , و قرر أن تجرى المسابقة داخل قصره(16),فلقد قال التنسي أنه " لم تخل حضرته من مناظرات و كلف بالعلم حتى صار نهج لسانه و روضه أجفانه فلم تخل حضرته من مناظرة (17).

لم يقتصر تقدير سلاطين تلمسان للعلماء بتلمسان في حياتهم , بل تعداه إلى الموت فقد كان الملوك يمشون في جنازات العلماء و الفقهاء , مثلما مشى السلطان الواثق في جنازة العلامة قاسم بن سعيد العقباني سنة

854 هجرية , و كذلك السماح يدفن العلماء في المقابر السلطانية –الملكية- ووصل احترام سلاطين تلمسان للعلماء و أصحاب الثقافة بأن يوصلوا بأن يدفنوا بجانب العلماء , مثلما أوصى السلطان يغمراسن أن يدفن قرب العالم التنسي , كما اهتم المدرس أنذاك بتلمسان في نشر المذهب المالكي الذي ترغب به الدولة , و اعداد الطلاب ليكونوا مؤهلين ليتقلدوا الوظائف الدينية و الشرعية و استلام الدواوين في الدولة , و فتح الطريق أمام الطلاب لبلوغ أعلى مناصب الدولة , بالإضافة الى نشر المعرفة بين الافراد و المجتمع كما أطلق على المدرس في تلك الحقبة ألقاب متعددة تعبر عن مكانته و مدى احترام الناس و تقديرهم له ,

و بذلك كانت له مكانة عالية , و من هذه الألقاب كان يسمى المدرس الشيخ و العالم , المحدث , الفقيه , فقيه العلم , البارع ,الزاهد, القاضي ,الحافظ, المفسر, المجتهد, من أهل الاداب , من اهل النحو, الشاعر, العارف , الأستاذ,و الفاضل , هذه كلها القاب كان يسمى بها المدرس أثناء تلك الفترة , و كان له احترام و تقدير فقد حصل على جراية شهريه و سكن قرب مكان التدريس , و ايتنى لهما السلطان أبو حمو موسى الأول دارين , و بالنسبة إلى الطلبة فقد كانت حالتهم خاصة , فهناك الجرايات المخصصة لهم و المساكن موفرة , كما شكل الطلاب طبقة خاصة , داخل مجتمع تلمسان , و لهم زيهم الخاص الذي يرتدونه داخل تلك المنطقة و لقد تنوع الطلبة بين طلبة من الاعراب المحيطة بتلمسان أو طلبة من سكان المدينة أو الذين يطلق عليهم الحضر , و تكون عملية التفريق بين الطلبة من خلال الزي الذين يرتدونه (18).

ومن مظاهر الحياة الفكرية في العهد الزياني العبد الوادي ازدهار النثر و الشعر , و أيضا عثر على بعض الرسائل الموجودة بدور الوثائق الاسبانية , و على الخصوص أرسلسمن قبل أمراء الدولة الزيانية تدل على المستوى الأدبي الرفيع التي كانت تمتاز به في تلك الحقبة و ما وصلت اليه من مستوى ثقافي فائق التقدير على العكس الرسائل التي أرسلت من قبل شيوخ القبائل البربرية و العربية (19).

فعند نزوح الأندلسيين إلى تلمسان أتوا بعلومهم و آدابهم , وقد رحب بهم السلطان يغمراسن وهذا ما صرح به ابن خطاب بأن السلطان يغمراسن فضل أن يسكن الأندلسيين مدينة تلمسان على جميع المدن الأخرى فيقول " و اطلع على أغراضهم السديدة في اختيار حضرته السعيدة للسكن على سائر البلاد , فلوحظ منهم النية و اعتبرها و أظهر عليهم مزياه مالهم من هذه و أذن ايده الله لهم و لمن شاء من أهل تلمسان (20).

و كان بلاط السلطان يغمراسن يزخر بالكتاب و الشعراء , فهذا الشاعر الأندلسي أبو بكر بن عبد الله ابن داود بن خطاب (21), كان مرسلا بليغا و كاتبا مجيدا وشاعرا مجيدا (22), وكان هذا شاعر الاندلس الذي عينه الملك يغمراسن كاتبا في قصره و مجلسه يتولى تحرير جميع رسائله إلى كل الجهات خاصة تونس و المغرب و الأندلس و ذكر ابن خلدون عن هذا الشاعر أن رسائله كانت شهيرة في بلاطات الامارات الإسلامية (23). و هذا ما أشار عليه التاريخ و سجله في كتبهم بأن هناك عدة رسائل و قصائد أنشأت لملوك بني زيان (24). فالقرن السابع الهجري كان يعرف حركية كبيرة في مجال الثقافة و الفكر , انطلقت مع دولة الموحدين و تواصلت مع العهد الزياني العبد الوادي , و قد كان الطابع الديني يسمو عليها و يغلب في أشعارهم و أقوالهم , مما أدى إلى انتشار و ظهور و ازدهار العلوم الدينية سواء النقلية أو العقلية , و من تم انحدار أو خروج طبقة الأعلام المتخصصين أو المتمكنين في جميع تلك الفروع الدينية سواء في الفقه أو في التصوف أو الكلام أو المنطق و الأصول (25).

ومما لا يعقل عنه أنه للدولة الزيانية فضل كبير في اثراء الفكر الثقافي لكن ناهيك عن أمروهران منذ عهد الموحدين كانت المدينة آنذاك في تلك الفترة تزخر بالعلم والعلماء ،

فقد ترك الموحدون آثاراً عربية إسلامية أكثر مما تركته أية دولة سبقتهم خلفوا وراءهم مدرسة خاصة بهم في فن العمارة والتلوين والزخرفة عكس النضيج الفكري الذي وصلت اليه الفنون الإسلامية العربية في هذه المرحلة المتأخرة من تاريخ ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، وانعكس ذلك في المساجد العديدة التي ينالها الموحدون ، فيعتبر العهد الزياني العصر الذهبي للمغرب الأوسط ففيه بلغت البلاد ذروة عزها وأوج مجدها ومنتهى رقيها وازدهارها وكان الطلبة في عهد الزيانيين يرتحلون الى العواصم العليمة الكبرى لطلب العلم وهذا بالعديد من المدن الشرقية والغربية كفاس ومراكش وغرناطة وتونس والقاهرة وبغداد وحتى الحرمين الشريفين ، كما شهد التعليم تطوراً كبيراً باستحداث طريقة فعالة في تلقين العلوم ، ولضمان المستوى الرفيع للعلماء ، كانت الاجازة في عهد الزيانين لا تعلم الا لمن يستحقها ، فقد جعل

الزيانيون من تلمسان عاصمة العلم والمعرفة ، فتأثرت الحياة الفكرية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني بالنزاعات السياسية والمذهبية التي طابعته بطابعها ، وغذت الأجيال المتتالية بما كانت تحمله في طياتها من قيم وأفكار ، وكانت الحياة الفكرية ، الى عصر الموحدين تكاد تنحصر في العلوم الدينية ، من تفسيير وحديث وفقه ، فجاء العهد الزياني فاشتهر الكثير من العلماء في مجال العلوم الدينية خاصة بداية القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن الهجري ، وقد جمع بعضهم بين العلوم الدينية والشعر فكان بذلك الشعر مصدراً للواقع السياسي والاجتماعي والديني للأمة ، هناك عوامل عديدة وكثيرة تضافرت لتجعل من أهل تلمسان في العهد الزياني العبدالوادي يميلون الى الزهد أيضا ويجدون في ذلك الملاذ في العباد والصالحين ، فطغت واقع معاش تميزه الأوضاع التي آالت اليها (26).

ومن الملاحظ أنه كانت الحالة الفكرية في العواصم المغربية متشابهة الى حد ما وخطة منها تلمسان وفاس ، اذ كانتا في بعض الفترات تحت حكم واحد ، اما بشكل مباشر أو غير مباشر ، زد على ذلك أن أهل العلم في العاصمتين كانوا على تواصل مستمر ورغم أن هذا العصر كانت فيه فتن واظطرابات وحروب مما سبب ضعف الدولة وانحلالها الا أن الحركة الحضارية بما فيها الذي نحن بصدد دراستها – المجال الثقافي – كانت متأصلة وفعالة في كل من تلمسان وفاس وهذا راجع الى عدة أسباب في ذلك منها : أن كلتا المدينتين كانتا عاصمة سياسة تحتضن السلطان وحاشيته ، وينفق الأموال الطائلة الباهضة على تعميرها بالمرافق العمرانية وكذلك تشجيع التنافس العلمي بين الدولتين وانتشار الجاليات الأندلسية من بلادها هروبا من القهر والظلم والاستبداد حاملة معها اشعارات علمية ثقافية وأيضا وجود صلات فكرية بين علماء المغربين الأوسط والأقصى (27).

كما وجد في العصر الزياني العلوم العقلية التي برز فيها العلماء من بينهم : بن إبراهيم العبدري التلمساني المشهور بالأبلي ولد سنة 681 هجرية الموافق 1282 م اشتهر بفنون المعقول وأبو عبد الله محمد بن النجار شيخ التعاليم في تلمسان وأبو الحسن علي بن أحمد المشهور بابن الفحام وآخرون اشتهروا في هذا العلم . فالحركة الثقافية اليت ظهرت في تلمسان لم تقتصر أثرها في الداخل فقط بل تعداها الى الخارج سواء كانت هناك علاقات ثقافية بين تلمسان وفاس وبجاية والأندلس أي المغرب والأندلس والمشرق الإسلامي

وذلك بسبب وجود الفتاوي التي كانت تصدر من علماء المدينة ويتم تطبيقها في المغرب الإسلامي أو الأسئلة الواردة لعلماء المدينة للإجابة عليها وخاصة في الأمور الشرعية من جميع أنحاء المغرب ، وكذلك المؤلفات والكتب التي كانت تصدر عن علماء المدينة وتدرس في مختلف الحواضر الإسلامية وخاصة كتب الشروح على القصائد والكتب الفقيهة ، بالإضافة الى انتقال علماء تلمسان للتدريس في حواضر المغرب ، فلم يبخل علماء المدينة ينشر علمهم وثقافتهم على طلاب العلم المسلمين في مختلف المدن الإسلامية فكان العلماء يهاجرون من تلمسان نحو مدن المشرق أو مدن المغرب ، ويأخذون عن علمائها ، وفي نفس الوقت يمنحون ماعندهم لطلاب هذه المناطق ويعود معظمهم بعلم أوسع لتلمسان ، ومثال ذلك العالم عبد الله الشريف الذي ذهب ودرس في غرناطة وعفيف الدين التلمساني (690ه-1291م) الذي توفي في دمشق ، فقد شارك علماء تلمسان بنشر الحركة العلمية في المنطقة من خلال تنقلهم بين مدن المغرب الإسلامي وقد جاء هذا التنقل لأسباب منها نشر العلم : فقد غادر قسم من العلماء المدينة نحو مدن أخرى بهدف نشر علمهم ، على عادة العلماء في تلك الفترة ، فمنهم من عاد الى المدينة ومنهم من لم يعد ، فمن العلماء التلمسانيين الذين غادروا تلمسان وعادوا اليها : العالم الفقيه أبو عبد الله محمد بن حسن بن محمد اليحصي المعروف بابن الباروني ، الذي أخذ علمه من تلمسان ثم غادرها الى فاس وأخذ عن علمائها ، ثم عاد الى تلمسان وتوفي فيها سنة 734 ه الموافق ل 1335 م ،كما كانت هناك ظروف سياسية جعلت بعض العلماء يغادرون تلمسان زمن السلاطين الزيانيين ومثل هذا الاتجاه أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني الذي غادر تلمسان سنة 703 ه الموافق ل 1304 م بعد خلافة مع السلطان الزياني ورحل الى غرناطة وتوفي فيها سنة 708 ه الموافق ل 1309 م وكذلك العالم الآبلي الذي غادر تلمسان بعد رفضه عرض السلطان أبوحمو موسى الأول استلام ضبط أموال الدولة الزيانية وعندما شعر أن السلطان سوف يجبره على ذلك غادرالمدينة الى فاس وبقي فيها لحين وفاته سنة 757 ه الموافق ل

1357 م لقد دأب الشعراء القدماء والمحدثون على التغني بتلمسان اعجابا بمفاتنها وامجادها فهذا ابن خميس الشاعر الصوفي التلمساني دائم الحنين الى مدينته تلمسان فيقول أبياتا شعرية فيها :

تلمسان جادتك السحاب الروائح *** وأرست بواديك الرياح اللواقح .**
وسح على ساحات باب جيادها *** ملث بصافي تربها ويصافح .**
يطير فؤادي كلما لاح لامع *** وينهل دمعي كلما ناح صادح (29)**

هوامش الدراسة:

01- سير أعلام تلمسان , عبد الحق حميش, دار التوفيقية ,المسيلة ط1, 2011, ص25.
02- ينظر: جماليات المكان في حاضرة تلمسان , مسعود بن ساري , منشورات بن سنان , الجزائر , ط1 , 2011 , ص53.
يغمراسن بربري الأصل من قبيلة زناتة.
03- أوراق تلمسانية , سعد بوفلاقة , منشورات بونة , الجزائر , ط1 , 2011 ص22,ص23.
04- تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان , عبدلي لخضر , دار الأوطان , ط1 ,2011, د.ب , ص452.
05- الإحاطة في أخبار غرناطة , لسان الدين ابن الخطيب , تحقيق و تقديم محمد عبد الله عنان ,ج1, دار المعارف , مصر , د.ت,ص194.
06- المقدمة , ابن خلدون , منشورات دار الكتاب , بيروت 1968, ص 106.
07- مآثر تلمسان ماضيا و حاضرا , نخبة من الأساتذة و المؤرخين , تعليق محمد بوزواوي , القافلة للنشر و التوزيع , الجزائر ,2011, ط, ص103.
08- تلمسان بعيون عربية , فوزي مصمودي , دار السبل , الجزائر , ط1 , 2001,ص213.
09- باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان , عاصمة دولة بني زيان , الحاج محمد بن رمضان شاوش , ديوان المطبوعات الجامعية , الجزائر ,1995,ص401.
10- جوانب من حياة في المغرب الأوسط , محمود بوعياد , الشركة الوطنية للنشر و التوزيع , الجزائر ,1982 ,ص35.
11- المرجع السابق : تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان , عبدلي لخضر , ص540.
12- الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي , الفرديل ,ترجمة عبد الرحمن بدوي دار الغرب الإسلامي ,بيروت , ص311.
13- المرجع السابق : باقةالسوسان في التعريف بحاضرة , تلمسان , الحاج محمد بن رمضان ص 485.
14- مجلة القضاء المغاربي ع6-7 , محمد مرتاض, مخبر الدراسات الأدبية و النقدية و أعلامها في المغرب العربي , 2011, ص223.
15- تلمسان في العهد الزياني , بسام كامل عبد الرزاق شقدان , رسالة ماجستير , جامعة النجاح الوطنية , فلسطين ,2002, ص233,ص235.
16- المرجع نفسه , ص 241.
17- تاريخ دولة الأدارسة , من كتاب نظم الدرو العقتان , عبد الله التنسي , تحقيق و تقديم عبد الحميد حاجيات , المؤسسة الوطنية للكتاب , الجزائر , ط1 , 1984 , ص236.
18- تعريف الخلف برجال السلف , ج2 أبو القاسم محمد الحفناوي ،تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان طبيخ هوسة الراسلة ، بيروت ، المكتبة العتيقة ، تونس ط1 ، 1982 ص92
19- تاريخ الدولة الزيانية ج2 مختار حساني ، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ط1 ، 2007 ، ص202 .
20- تلمسان في العهد الزياني ، ج2 عبد العزيز فيلالي ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ،2002 ،ص 175 .
21- تاريخ بن زيان ملوك تلمسان ، محمد بن عبد الله التنسي ،تح محمود بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ، ص 125 .
22- تاريخ ابن خلدون المسمى : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، عبد الرحمان بن خلدون ، ج7 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط1 ،1992 ، ص93 .
23- مدن الفن الشهيرة ، تلمسان ، جورج مارسي ، دار النشر التل ، الجزائر ، ط 2004 ص 44.
24- تاريخ الأدب الجزائري ، محمد الطمار ، تقديم عبد الجليل مرتاض ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2006 ، ص282 .
25- ابن خميس ..... شعره ، طاهر توات ، دار الثقافة ، الجزائر ط1، 2007 ، ص 31 .
26- المرجع السابق ص 31.

27- جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 9:6هجري / 12-15 م من خلال كتاب المعيار الونشريسي ، أطروحة الدكتوراه ،بلبشير عمر ، جامعة وهران ، 2010 ، ص15 .
28- المرجع السابق ، تلمسان في العهد الزياني ، عبد العزيز فيلالي ، ص 252 .
29- أوراق تلمسانية سعد بوفلاقة ، منشورات بونة ، الجزائر ، ط1 ، 2011 ، ص 210.